

الباب الخامس أدوات الدعوة

obeikan.com

قدرة المعلم

إذا انتشرت دعوة من الدعوات الكبيرة في العالم ثبت من انتشارها شيئان على الأقل، وهما أن العالم كان عند انتشارها محتاجاً إليها، وكان مستعداً لسماعها، وهما شيئان مختلفان لا يذكران في معرض الترادف والتماثل، لأن الحاجة إلى الدعوة كالعلة، والاستعداد لسماعها كالشعور بالعلة، أو كالاستعداد لطلب الدواء، وقد يتفقان في وقت واحد، وقد توجد العلة، ولا يوجد معها طلب الدواء ولا قبوله، إذا عُرِضَ على العليل.

وجملة ما يفهم من العصور التمهيدية التي لخصنا الكلام عليها فيما مضى أن العالم في عصر الميلاد كان محتاجاً إلى الدعوة المسيحية، مستعداً لسماعها، سواء قصرنا الكلام على عالم إسرائيل، أو عَمَمنا به العالم أجمع.

فعالم إسرائيل كان يؤمن بالمسيح المنتظر، وبمواعده في تلك الحقة من الزمن، والعالم المعمور كان يؤمن إيماناً «سلبياً» بإفلاس الوثنية، وإفقار النفوس من الرجاء، وكان عامته في بؤس وبأس، وخاصته مستسلمين للمتاع، أو مستسلمين للتصوف، من كان منهم يفكر دان بالأيقورية، أو دان بالرواقية، ومن كان مطبوعاً على التدين والبحث في شئون الغيب، دان بنحلة خاصة من النحل السرية التي تحل فيها المراسم والشعائر محل الفرائض والعبادات.

وقد يكون الكثيرون من الخاصة بمعزل عن الأيقورية والرواقية والنحل السرية، فهم إذن في حالة الخواء الذي يسبق الامتلاء، وأسلم ما يقال عنه في صدد العقيدة المقبلة أنه لا يملك القوة على مقاومتها بقوة مثلها، وأنه قد يتفتح بقبولها فيكون شعور الخواء من أسباب الإقبال عليها والرغبة فيها.

كان العالم في عصر الميلاد محتاجاً للعقيدة مستعداً لسماعها، ما في ذلك ريب، ولكنه مع هذه الحاجة، وهذا الاستعداد لم يكن خليقاً أن يظفر بتلك العقيدة عفواً صفواً بغير جهاد من رسلها ودعاتها، وبغير كفاية عالية في أولئك الرسل والدعاة.

لم يكن احتياج العالم للعقيدة، ولا استعداد لسماعها مغنياً للعقيدة عن أدوات الفلاح والنجاح، وأولها قدرة الداعي على كسب النفوس، واجتذاب الأسماع، والغلبة على ما يقاومه من المكابرة والعناد.

وقد كانت هذه القدرة موفورة في معلم المسيحية، وبحق سُمي المعلم ونُودي به في مختلف المجامع والمحافل، لأن مهمته الكبرى كانت مهمة تعليم وإحياء روحي حيوي من طريق التعليم.

نُؤدي المسيح بالمعلم فيما روته الأناجيل مرات، ناداه بهذا اللقب تلاميذه كما ناداه به خصومه، ومن يستمعون له غير متعلمين وغير مخلصين.

وكان نداؤهم له بهذا اللقب، لأنهم يجدون في كلامه علماً واسعاً بالكتب والأسفار، وبديهة حاضرة في الاستشهاد بها، والتعقيب عليها، ويكفي ما بين أيدينا من الأناجيل للجزم بأنه كان يرتل المزامير، وكان يحفظ كتب أرميا وأشعيا وحزقيال، فضلاً عن الكتب الخمسة التي نسبت إلى موسى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وفضلاً عن اختلاف المذاهب فيتطبيق الوصايا والأحكام.

ويُرجح بعض المؤرخين أنه كان يعرف اليونانية، وأن الحديث الذي دار بينه وبين بيلاطس كان بهذه اللغة، لأن اليونانية كانت شائعة في عصره بين أبناء الجليل، وكان كثير من اليهود خارج الجليل لا يفهمون العبرانية ولا الآرامية، ويحتاجون إلى ترجمة الكتب المقدسة باللغة اليونانية، ومنهم من كان يحتاج إلى بيت المقدس في الأعياد، ومن أبناء الجليل اليهود من كانوا يسافرون إلى الإسكندرية وبلاد الإغريق، لا يفهمون بغير اليونانية مع أبناء جلدتهم هناك، فلا غرابة في معرفة السيد المسيح باليونانية، كما كان يعرفها الكثيرون من أبناء الجليل، ولكن المحقق أنه كان يعرف العبرية الفصحى التي تدرس بها كتب موسى والأنبياء، وأنه كان يعرف الآرامية التي كان يتكلمها كلام البلغاء، وأنه إذا عرف اليونانية فإنما كانت معرفته بها معرفة خطاب ولم تكن معرفة دراسة، لأن أقواله خلت من الإشارة إلى مصدر واحد من مصادر الثقافة المكتوبة بتلك اللغة، ولأن العبارات التي جاءت في الأناجيل اليونانية منسوبة إليه تشف عن أصلها الآرامي بما فيها من الجناس، أو من قواعد البلاغة، وإيقاع الألفاظ.

على أن هذا العلم كله بالثقافة الموسوية الإسرائيلية لم يكن فريداً بين أحبار اليهود في تلك الآونة، فربما كان في بيت المقدس يومئذ مئات من الكتبة والفريسيين حفظوا من تلك الكتب ما حفظ السيد المسيح، واقتدروا على الاستشهاد بها، والتعقيب عليها بعارضة قوية، وبديهة حاضرة، ولم تكن لواحد منهم كفاية المعلم الذي ييثر الحياة الروحانية في النفوس، وينفث في الخواطر تلك الراحة التي تشبه راحة السريرة، حين تتناسق فيها الأنغام التي كانت متنافرة قبل أن تجتمع وتضاع.

لقد كانت اللغة التي حملت بشائر الدعوة الأولى لغة صاحبها بغير مشابهة، ولا مُناظرة في القوة والنفوذ.

كانت لغة فذّة في تركيب كلماتها ومفرداتها، فذّة في بلاغتها وتصريف معانيها، فذّة في طابعها الذي لا يشبهه طابع آخر في الكلام المسموع أو المكتوب، ولولا ذلك لما أخذ السامعون بها ذلك المأخذ المحبوب، مع غلبته القوية على الأذهان والقلوب.

كانت في تركيبها نمطاً بين النثر المرسل والشعر المنظوم، فكانت فناً خاصاً ملائماً لدروس التعليم والتشويق، وحفز الذاكرة والخيال، وهو نمط من النظم لا يشبه نظم الأعارض والتفعيلات التي نعرفها في اللغة العربية، لأن هذا النمط من النظم غير معروف في اللغة الآرامية ولا في اللغة العبرية، ولكنه أشبه ما يكون بأسلوب الفواصل المتقابلة والتصريعات المرددة التي ينتظرها السامع انتظاره للقافية، وإن كانت لا تتكرر بلفظها المعاد.

كان أسلوبه في إيقاع الكلام أسلوباً يكثر فيه التردد والتقرير، وليس في الترجمة العربية ما يدل عليه من قريب، ولكنها مع التأمل تدل عليه من بعيد، كما في هذا المثال:

"اسألوا تعطوا.

اطلبوا تجدوا.

اقرعوا يفتح لكم.

لأن من يسأل يأخذ، ومن يطلب يجد، ومن يقرع يفتح له الباب.

من منكم يسأله ابنه خبزاً فيعطيه خبزاً.

أو يسأله سمكة فيعطيه حية.

أو يسأله بيضة فيعطيه عقرباً.

فإذا كنتم - وأنتم أشرار - تحسنون العطاء للأبناء، فكيف بالأب الذي في السماء يعطي

الروح القدس لمن يسألون".

أو كما في هذا المثال:

"كما في أيام نوح كذلك يكون في أيام ابن الإنسان.

كانوا يأكلون ويشربون ويزوجون ويتزوجون، إلى اليوم الذي دخل الفلك وجاء

الطوفان، وأهلك الجميع.

كذلك في أيام لوط كانوا يأكلون ويشربون ويبيعون ويغرسون وبينون، ولكن اليوم الذي

خرج فيه لوط من سدوم أمطرت ناراً وكبريتاً من السماء فأهلك الجميع.

هكذا يكون في اليوم الذي يظهر فيه ابن الإنسان.
في ذلك اليوم من كان على السقف، وأمتعته في البيت، فلا يهبط إليها ليأخذها.
ومن كان في الحقل فلا يرجع إلى الوراء، ألا تذكرون امرأة لوط؟ من طلب الخلاص لنفسه يهلكها، ومن أهلكها يُحييها.
أقول لكم فاستمعوا: في تلك الليلة يكون اثنان على فراش واحد فيؤخذ أحدهما ويترك صاحبه.

وتكون اثنتان تطحنان، تؤخذ إحداها وتترك الأخرى.
ويكون اثنان في الحقل يؤخذ هذا ويترك ذاك.
... حيث تكون الجثة هناك تجتمع النسور".

وقريب من هذين المثالين نذيره لأورشليم:
«يا أورشليم! يا أورشليم!
«يا قاتلة الأنبياء، وراجمة المرسلين.
«كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها.
«ولم تريدوا.
«هو ذا بيتكم رهين بالخراب».
وقريب منه نذيره لبنات أورشليم.
«يا بنات أورشليم!
«لا تبكين عليّ، وعلى أنفسكن وأولادكن فابكين.
«أيام يقولون طوبى للعواقر والبطون التي لم تلد والثدي التي لم تُرضع.
أيام ينادون الجبال أن تسقط عليهم، والأكام أن تكون غطاءً لهم.
إن كان بالغض الرطب يصنع هذا، فباليابس ماذا يصنعون؟».

هذه النماذج فيها بعض الدلالة على أسلوبه في تركيب اللفظ، وسياق النذير والتذكير.
أما أسلوب المعنى فقد اشتهر منه نمط الأمثال في كل قالب من قوالب الأمثال، ومنه
القالب الذي يعول على الرمز، والقالب الذي يعول على الحكمة، والقالب الذي يعول على
القياس، والقالب الذي يعول على التشبيهات، وكلها تتسم بطابع واحد هو طابعه الذي انفرد

به بين أنبياء الكتب الدينية بغير نظير، وإن كانوا قد اعتمدوا مثله على ضروب شتى من الأمثال.

فمن نماذج المثل الذي يعول على الرمز مثل الزارع والبذور «زارع خرج ليزرع، وفيما هو في الطريق سقط بعض البذور، فجاءت طيور السماء وأكلته، وسقط بعضها في مكان محجر خفيف التربة، فنبتت على الأثر، ثم لم يلبث أن أشرقت عليه الشمس فاحترق، وإذا لم يكن له عمق في جوف الأرض جف، وسقط بعض البذور بين الشوك فطلع الشوك وخنقه فلم يثمر، وسقط غيرها في الأرض الجيدة فأعطى ثمرًا يصعد وينمو، فأتى واحد بثلاثين، وآخر بستين، وآخر بمائة، من له أذنان للسمع فليسمع.

ومن نماذجه مثل فتيات العرس: «يشبه ملكوت السماوات عشر عذارى أخذن مصابيحهن للقاء العريس، خمس منهن فطنات، وخمس غافلات، أما الغافلات فقد أخذن المصابيح ولم يأخذن معها زيتًا، وأما الفطنات فأخذن الزيت في آنيتهن مع المصابيح، وأبطأ مقدم العريس فغلبهن النعاس جميعًا، ثم علت الصيحة عند منتصف الليل: هاهو ذا العريس قد أقبل فاخرجن للقائه. فالتفتت الغافلات إلى مصابيحهن تنطفئ، وسألن زميلاتهن قليلًا من زيتهن، فأجبنهن: لعله لا يكفيننا فذهبن واشترين حيث يباع. وفيما هن ذاهبات قدم العريس... وصحبته الحاضرات المستعدات إلى محفل الزفاف، ثم جاءت الغائبات، وقد أغلق الباب وطفقن يتأدين: افتح لنا يا سيد، افتح لنا يا سيد. فأجابهن: من أنتن؟ إني لا أعرفكن! ومنه قوله: «أنا خبز الحياة، من يقبل علي لا يجوع».

ومن نماذج المثل الذي يعول على الحكمة: «لا تطرحوا الدر أمام الخنازير». «بالكيل الذي تكيلون يكال لكم». «أيُّها المداوي داو نفسك»، «خمر جديدة في زقاق قديمة». «لا تدع يسارك تعلم بما تصنع يمينك». «من ثارهم تعرفونهم»، «لا كرامة لنبي في وطنه».

ومن نماذج المثل الذي يعول على القياس: «إن كُتُم تحبون من يُحبونكم فأَي فضل لكم؟ أليس ذلك شأن العشارين؟»

ومنه في تبكيت من ينكرون عليه صحبة الخاطئين: «لا حاجة بالأصحاء إلى طبيب، إنما المرضى يحتاجون إلى الأطباء» ومنه: «إن كان النور الذي فيك ظلامًا، فالظلام كم يكون!»

ومن نماذج المثل الذي يعول على التشبيهات خطابه لتلاميذه: «أنتم ملح الأرض، فإن فسد الملح فبماذا يصلح؟ إنه لا يصلح إذن إلا لأني لُقي على التراب ويدأس، أنتم نور العالم، ولا خفاء بمدينة قائمة على رأس جبل، وما من سراج يُوقد ليوضع تحت المكيال، ولكنه يرفع على المنار يستضيء به جميع من في الدار».

ومن نماذجه: «لا تكتنوا لكم كنوزاً على الأرض حيث يفسد السوس والصدأ، وحيث ينقب السارقون ويسرقون، بل اكنزوا لكم كنوزاً في السماء حيث لا سوس ولا صدأ ولا لصوص. وحيث يكون الكنز يكون القلب».

وقد أثر عن السيد المسيح في جميع الأمثال حُب المقابلة بين الأضداد لجلاء المعاني، وتوضيح الفوارق من وراء هذه المقابلة: «يرون القذى في أعين غيرهم، ولا يرون الخشبة في أعينهم»، «يُحاسِبون على البعوضة، ويلعبون الجمل»، «في الظاهر جدران مبيضة، وفي الباطن عظام نخرة»، «غني يدخل باب السماء كجبل غليظ يدخل في سم الخياط»، ومُعظم هذه الأمثلة تأتي في مناسباتها عفو الخاطر، جواباً عن سؤال، أو تعقيباً على حادث عارض، أو تقريراً لمكابر، فيندر أن يسترسل فيها المعلم البصير إلى غير المناسبة التي توحى، ولهذا يرجح بعض الشراح المحدثين أن الأمثلة المتوالية في المقاصد المختلفة لم تصدر عنه في سياق واحد أو جلسة واحدة، وأن الخطبة على الجبل - وهي أحفل الخطب بالمقاصد والموضوعات - جمعت من متفرقات كانت منجمة على حسب - الموضوعات في أوقاتها ومناسباتها.

وإذا كانت طائفة من عظات السيد المسيح جاشت بنفسه في أوقات مناجاتها فانتظمت فيها كما تنتظم المعاني المنسوقة في البديهة الملهمة، فقد كانت سرعة البديهة تُسَعِّفه في غير هذه الأحوال، فتجري كلماته في مجراها المألوف على نسق سهل قد يظن به التحضير، لأنه مُنتظم غير مُرسل، ولكنه في الواقع لم يكن محضراً قبل ساعته، وغاية ما يعرض له من التحضير أن الفكر الذي يجود به لم يخل قط من التفكير فيه، وأنه تعود التفكير في المواقف المتشابهة، فانسبكت قوالب التعبير في بواطن قريحته غير مقصودة ولا مُتكلفة، وهي عادة يعرفها من تعود التفكير والتعبير وحضور الشعور بينهم وبين الجماهير، وقد سمعت خطباء جادوا بأبلغ آياتهم الخطابية في لحظة من لحظات الارتجال الفياض بين الشعور المتجاوب والحماسة المنبعثة من القائل والمستمعين، فهم مرتجلون يُحِيلُ إليهم قبل غيرهم أن هم يسمعون كلاماً معهوداً، ويوشك أن يتساءلوا: أين يا ترى سمعوه قبل الآن؟ والواقع أنهم نقلوه من وعيهم الخفي إلى وعيهم الظاهر، فكان شأنهم كشأن سامعيه في استغرابه، والواقع أيضاً أن النَّاسَ

حين يستمعون إليه يرونه غريباً وقريباً في وقت واحد: غريباً لأنه كان يساورهم ولا يدركونه، وقريباً لأنهم تمثلوه بفضل بلاغة القائل بعد استعصائه على الإدراك.

ومن كان كالسيد المسيح تربى منذ طفولته على التلاوة في كتب الأنبياء، وتتابع على سمعه ولسانه أصداء المزامير المرتلة، والأمثال المرددة، واستقامت فطرته على الوحي والإيحاء فليس أقرب إليه من أن ينطلق بكلام يحيك في الأسماع بهاتف الصحف الأولى وهو من نبع فؤاده وإملاء بديته، وهذه هي البديهة التي كان يعينها حين يوصي تلاميذه بالاعتماد على الطبع وترك الاهتمام بالتزويق والتنميق قبل الساعة التي تدعوهم دواعيها للخطاب.

ولعل سامعي العظات الدينية في عصر المسيح قد سمعوا الأمثال في قوالها مرات كثيرة، ولعلهم كانوا يعاودون سماعها كلما دخلوا معبداً، أو استمعوا إلى خطيب في غير المعابد، فإن نقاد البيان العبري والآرامي يردون هذه الصيغ البيانية إلى عصور قديمة سبقت مولد المسيح بمئات السنين، فلم يكن المسيح مبدعاً للأمثال، ولا لقوالها التي تعول على الرموز، أو الحكم، أو التشبيهات، أو منطق القياس، ولكن الأمر المحقق أن سامعي ذلك العصر لم يعرفوا قط أريحية كتلك الأريحية التي كانت تشيع في أطوائهم، وهم يصغون بأسماعهم وقلوبهم إلى ذلك المعلم المحبوب، الذي كان يناجيهم بالغرائب والغيبات مأنوسة حيّة، يحسبون أنها حاضرة في أعماقهم لم تفارقهم ساعة أو بعض ساعة، لفرط ما كان يغمرهم من حضوره المشرق، ويستولي عليهم من عطفه الطيب وحنانه الطهور.

ومن البيان ما يروع ويهول ويخيل إلى سامعه أن يتعد من مصدره كلما أصغى إليه، ومنه ما يجذب ويقرب ويخيل إلى سامعيه أن كل كلمة منه ترفع حاجزاً، أو تدني مسافة، وتزيل وحشة بين القائل والسميع. من هذا البيان كان بيان المعلم المحبوب القدير على تقريب سامعيه بالعطف والإفهام، فمن فهم قريب، ومن لم يفهم غير بعيد، وفي وسعنا أن نتخيل أولئك المستمعين البسطاء يقبلون على الاستماع وهم في ظلام الجهالة لا يدرون ماذا سيسمعون، ثم تتفتح في أذهانهم الخواطر، وتتفق فيها الأشباه، وتتبين الفوارق بين الأضداد، فينجاب الظلام سدفة بعد سدفة، ويعقبه النور قبساً وراء قبس، ويدخلهم على مهل شعور الأعمى الذي يسترد بصره مشدوهاً بالرؤية لأول مرة، أو شعور المدلج الذي يصحب الليل من السحر إلى الصباح: هداية في رفق ورحمة، واقتراب في غير عناء ولا اقتحام.

في وسعنا أن نتخيل أولئك البسطاء يقتربون من معلمهم بالفهم والمعرفة، أويقربون منه بالعطف والمودة.

في وسعنا أن نتخيل من ثم فضل الرسول في الرسالة، فلا رسالة في الحق بغير رسول، ولا سبيل إلى قيام المسيحية بغير مسيح، فإن مصدر الرسالة الروحية هو زبدتها وجوهرها، وهو الأصل الأصيل في قوتها ونفاذها، وكل ما عداه فروع وزيادات.

لقد كان لب الرسالة المسيحية في لب رسولها المسيح، هداية إنسان لا صولة له على أحد غير العطف والإلهام، ومكاشفة القلوب والأفهام، ولو لم يكن فضل الرسول هو فضل الرسالة، لقد كان يؤحنا هو الأولى بالسبق في الميدان؛ لأنه صاحب السبق في الدعوة، وصاحب السبق في الشهادة، ولكنها دعوة كانت تنتظر صاحبها، وصاحبها هو المسيح، وكانت حاجة العالم كله إلى الدعوة المطلوبة لا تكفي بغير صاحبها القادر عليها، والصالح لإقامتها؛ لأن صاحب الحاجة لا يملك بالبداية ما هو محتاج إليه.

إخلاص التلاميذ

فضل التلاميذ الأول في كل دعوة أُنْهَمْ دعاة، أي أُنْهَمْ شركاء للمُعلم في نشر الدعوة. أما الفضل الأول للتلاميذ في الدعوة المسيحية فهو أُنْهَمْ مستجيبون، فلم يكونوا قادة يدعون غيرهم إلى صفوفهم، بل كانوا في الواقع هم الصف الأول السابق إلى الاستجابة، ثم تلتهم صفوف أخرى من أمثاله، ليس فيهم قائد ولا مقود، وكلهم في قبول الدعوة سواء. كان فضل التلاميذ في الديانة المسيحية أُنْهَمْ أول القابلين، ولا بد أن نعلم هذا الفارق بين طبيعة القابلين، وطبيعة العاملين.

فالتلاميذ بالنسبة إلى السيد المسيح هم أمته الصغرى، كَبُرَتْ مع الزمن على هذا المثال، فأصبحوا أمة كبيرة تقتدي بتلك الأمة الصغيرة في الاستجابة، فهم سابقون أعقبهم لاحقون من قبيلهم، وهم الصف الأول في الجيش الواحد، وليسوا هم جيشًا يُقَابَل جيشًا آخر بالدعوة فيلبية وينضوي إليه.

كانوا نموذج الأمة المسيحية في أول الرسالة، ومضى على الأمة المسيحية عدة أجيال، وهي لا تُخَالَف هذا النموذج في التكوين، ولا في الطراز، ومن هنا نقول إن التلاميذ لم يكونوا دعاة فرضوا عقيدتهم على أناس غيرهم، ولكنهم وغيرهم جميعًا مستجيبون للدعوة فوجًا بعد فوج، ورعيلاً وراء رعييل.

في الدعوات قادة ومقودون.

ولكن التلاميذ في الدعوة المسيحية لم يكونوا قادة لغيرهم، بل كانوا هم السابقين من صفوف تلاحقت وتعاقت، لا فرق في بنيتها بين أولين وآخرين.

وليس في سيرتهم الأولى ما يفهم منه أُنْهَمْ مميزون بصفة القيادة، فهم جميعًا منبئة واحدة، وربما كانوا جميعًا من سلالة مُتقاربة أو بيوت متجاورة، كأُنْهَمْ وقعت عليهم القرعة بين المتشابهين والمتماثلين، ثم امتازوا بعد ذلك بالتعليم والتدريب على يدي السيد المسيح.

وكان السيد المسيح ينظر إلى بعضهم، فيقول له: اتبعني. فيتبعه ولا يظهر عليه أنه أفضل من غيره بمزية عقلية أو نفسية إلا أن تكون المزية التي يتوسمها فيه السيد فيدعوه من أجلها، وهي مزية الإصغاء والاتباع.

ولم يبد منهم أُنْهَمْ أقدر على فهمه من الآخرين، فلو أصابت القرعة اثني عشر آخرين لكانوا في مثل قدرتهم على التعلم واستعدادهم للقبول، لأن كفاءتهم - ولا شك - هي الكفاءة الوسطى في كل طائفة بهذا العدد، ومن هذه البيئة، فلم يكن منهم علم بارز لا يتكرر

بهذه النسبة في آية جماعة يقع عليها النظر للوهلة الأولى، فلا يقال في واحد منهم إنه واحد من مائة أو واحد من ألف لا يتكرر، أو أن واحداً منهم تعلم ما لا يتعلمه أمثاله لو حضروا كما حضر على معلمهم القدير، بل كل ما يقال إنه مُجَنَّد يشبه غيره من المجندين، والفضل للقائد بعد ذلك فيما ظفر به من التدريب والتهديب.

وقد وقع عليهم الاختيار كما جاء في الأنجيل.

ولكن لا يبدو من ذلك الاختيار أنه كان اختياراً نادراً أو مستعصياً على القائد الحكيم الحصيف، ولعل العامل الأكبر فيه أنهم مُختارون من طائفة متعارفة متأكفة، وأن اجتماعهم هكذا خير وأصلح من اجتماعهم بدداً من بيئات متباعدة، فإن المتألفين أولى بمصاحبة بعضهم بعضاً من المتباعدين.

ونحسب أن التشبيه بالتجنيد هنا خليق أُنِّي قُرب إلى الأذهان هذا المعنى الذي نريه المكان الأول في فهم الدعوة وأسباب سريانها.

فالمجنّدون يقرعون، وكلهم مُتماثلون في شروط التجنيد، ولكنهم مع هذا يعرضون على القائد فيعزل منهم فئة متجانسة فيما يراه، وكل الفئات الأخرى تضارعا على الجملة في شروط التجنيد.

لم يكونوا طينة من البشر غير طينة السواد لولا تلك النفحة العلوية التي نفتتها فيهم روح المعلم القدير.

كان يعرف عيوبهم، وكانوا في أمانتهم وإخلاصهم لا يغالطون أنفسهم في تلك العيوب. كان يُخاطبهم فلا يفهمونه، فيسألونه مزيداً من التوضيح، وكان يُخامرهم الشك فيحسه منهم فلا ينكرونه، وربما فاتحوه بالشك ابتداءً وسألوه أن يزيدهم إيماناً، فيزيدهم ويعلمهم كيف يتقون أمثال هذه الشكوك.

ولم يحسب قط أنهم طود لا يتزعزع، وأنهم عزيمة لا تتضعضع، وأنهم يؤاجهون المحنة في كل حال، ولا يدركهم ضعف النفس يوماً أمام هول من الأهوال.

فقد أنبأهم أنهم سيتخلون عنه، وقد ناموا وهو يسألهم أن يسهروا معه، وقد لامهم غير مرة، لأنهم يتنافسون على سبق، أو لأنهم يستبطئون جزاءهم على الإيمان، أو لأنهم بعد وعظهم وتذكيرهم لم يزالوا يفرقون بين الناس، ويدينون بشريعة غير شريعة الحب والغفران،

ولم يكن على اليقين ينتظر منهم أكثر مما نظر، أو تفوته منهم في أوائلهم حالة ظهرت له في أواخرهم، ولكنه علم المطلوب منهم كله فوجد فيه الكفاية؛ عَلمَ أَنَّهُم نموذج لغيرهم يتكرر على مثالهم، وليس مطلوباً من النَّاس في العالم الواسع أنْ يَدْرِكُوا مقاماً من الإيمان فوق مقام الإخلاص وحسن الاستعداد لإصلاح العيوب، وهذا المقام قد أدركه التلاميذ يوم وكل إليهم أنْ يسيحوا في أرض الله، ويجعلوا من أنفسهم مثلاً يقتدي به المخلصون.

فهو لم يقصد إعدادهم ليخرجهم طرازاً معصوماً لا عيب فيه، ولا مأخذ فيه، ولكنه قصد إعدادهم، ليحسنوا القدوة، ويجمعوا حولهم من يسلك مسلكهم، ويستقبلهم قبلتهم، ويكفّلوا أنفسهم غاية ما يستطيعون، وقد يستطيع من يقفوههم فوق ما استطاعوه.

ومن العبارات ذات المغزى الكبير في الإنجيل أن المسيح مضى شوطاً بعيداً في دعوته، ولم يقل لهم إِنَّهُ هو المسيح المنتظر، فشاع ذكره في القرى، وتساءل النَّاس عنه: من يكون؟ فمنهم من يقول إِنَّهُ يُوحنا المعمدان قد بعث من الموتى، ومنهم من يقول إِنَّهُ إلياس، ومنهم من يقول إِنَّهُ نبي مبعوث، والمسيح لا يقول للتلاميذ إِنَّهُ المسيح، بل سألهم بعد شيوع ذكره، وتساؤل النَّاس عنه: وأنتم من تقولون إِنِّي أنا هو؟ فأجابه بطرس: أنت المسيح. فانتهره، وأوصاهم ألا يذكروا ذلك لأحد، في رواية إنجيل مرقس، أما في إنجيل مَتَّى فقد رُوي أن بطرس قال: «أنت هو المسيح ابن الله الحي». فأجاب يسوع وقال: «طوبى لك يا سمعان بن يونا، أن مخلوقاً من لحم ودم لم يعلن لك، ولكنه أبي الذي في السماوات، وأنا أقول لك إِنَّكَ أنت بطرس¹، وعلى هذه الصخرة أبني كنيستي، وأبواب الجحيم لن تقوى عليها، وأعطيك مفاتيح السماوات، فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطاً في السماوات، وكل ما تحله على الأرض يكون محلولاً في السماوات، ثم أوصى تلاميذه ألا يقولوا لأحد إِنَّهُ هو يسوع المسيح». أما في إنجيل لوقا فالرواية أقرب إلى رواية إنجيل مرقس: «ففيما هو يصلي على انفراد، كان التلاميذ معه فسألهم قائلاً: ماذا تقول الجموع عني؟ فأجابوا أَنَّهُم يقولون: يُوحنا المعمدان. وآخرون يقولون: إن نبياً من القدماء قام. ثم سألهم: وأنتم من تقولون؟ فقال بطرس: «مسيح الله، فانتهرهم، وأوصاهم ألا يقولوا ذلك لأحد».

والرواية في يُوحنا أقرب إلى تصوير ما قدمناه، فإن السيد المسيح أحس أن النَّاس يتراجعون عنه « وأن كثيراً من تلاميذه رجعوا إلى الوراء، ولم يمشوا معه، فقال للاثني عشر:

1 الكلمة الآرامية "صفا" بمعنى حجر كما في العربية وبطرس "بيترا" هي ترجمة الكلمة اليونانية.

ألعلمكم أنتم تريدون أيضاً أن تذهبوا؟ فأجاب سمعان بطرس: يا رب! إلى أين نذهب؟ كلام الحياة الأبدية عندك، ونحن قد آمنّا، وعرفنا أنّك أنت المسيح ابن لله الحي. فأجابهم: «ألسنت أنا اخترتكم؟ وواحد منكم شيطان»!.

وقد تسمى كثيرون باسم التلاميذ، فقال لهم كما جاء في إنجيل يوحنا: «قال يسوع لليهود الذين آمنوا به إنَّكم إن ثبتتم في كلامي كنتم بالحقيقة تلاميذي، وتعرفون الحق، والحق يُحرركم، فأجابوه: إنّنا ذرية إبراهيم، ولسنا عبيداً لأحد، فكيف تقول إنَّكم ستصيرون أحراراً؟ قال: الحق الحق أقول لكم إن كل من يعمل للخطيئة فهو عبدٌ للخطيئة، والعبد لا يبقى في البيت أبداً، إنّما يبقى فيه الابن إلى الأبد، فإن حرركم الابن فبالحقيقة تكونون أحراراً، أنا عالم أنّكم ذرية إبراهيم، لكنّكم تريدون قتلي، لأن كلامي لا يقع منكم موقعاً، أنا أتكلّم بما رأيته عند أبي، وأنتم تعلمون ما رأيتم عند أبيكم، فأجابوه: إن أبانا إبراهيم، قال: لو كان أباكم لعملتم عمله، ولكنكم الآن تطلبون دمي، وأنا إنسان كلمكم بالحق الذي سمعته من الله، هذا لم يعمله إبراهيم، وأنتم تعملون أعمال أبيكم، فقالوا له: إنّنا لم نولد من سفّاح، لنا أب واحد هو الله. قال: لو كان لله أباكم لكنتم تحبونني، لأنّني خرجت من قبل الله، وأتيت إليكم، إنّني لم آت من نفسي بل هو أرسلني ... أنتم من أب واحد هو إبليس»...

فأجابه اليهود: «الحسن تقول إنك سامري بك شيطان. وبعد أن قال لهم «إن من يحفظ كلامي لن يرى الموت»، عادوا يقولون: الآن تبين لنا أن بك شيطانا، قد مات إبراهيم، وأنت تقول «إن حفظ أحد كلامي لن يذوق الموت، من تجعل نفسك؟ ألعلك أعظم من أبينا إبراهيم الذي مات»؟!!

والعبرة من هذه القصة أن السيد المسيح مضى في دعوته زمناً، ولم يذكر لتلاميذه أنّه هو المسيح الموعود، وأنّه كان يعلم ممن يطلبون التلمذ عليه أنّهم لا يدركون مايقول، ولا يفرّقون بين لغة الحس، ولغة الروح، أو لغة المجاز، وأنّه أشفق يوماً أن ينفض عنه تلاميذه المختارون كما انفض هؤلاء الذين أرادوا أن يحسبوا أنفسهم من التلاميذ، وزعموا أنّهم مثله، فأنكر عليهم دعواهم، وقال لهم: إنّما بنوة الله بالأعمال، وإنما أنتم بأعمالكم أبناء إبليس! وقد علم المسيح أنّه لن يبقى طويلاً مع طلاب التلمذة عليه إلى الأبد، وأنّه لن يبقى معهم حتّى يبلغوا من الدراية والإيمان تلك الغاية المثلى التي ليس فوقها غاية، فإن صمّد معه أناس

يضعفوا تارة، ولا يحسنوا فهمه تارة أخرى، ولكنهم يحسنون الظن، ويتقربون الأمل في الخلاص من هذا الطريق، فأولئك على علاقتهم خير من المتعلمين الذين يسيئون الفهم، ويستكبرون ويأتمرون به ليقضوا عليه.

والشائع أن التلاميذ كانوا طائفة من صيادي السمك في بحر الجليل، والمفهوم من هذا عند أناس ممن يعرفونهم بالصناعة على السماع أنهم في طبقة عمال الصيد الأميين، ولكنه فهم متعجل مبني على قياس غير صائب، إذ الواقع أنهم كانوا طائفة تقرأ وتكتب وتتردد على مجامع الوعظ والصلاة، وتراجع ما قيل عن النبوءات، لم يبلغوا في العلم مبلغ الفقهاء في زمانهم، وهو خير، لأنهم لو كانوا من فقهاء زمانهم لركبهم الغرور، وقابلوا الدعوة بالتحدي والمكابرة، ولكنهم لم يبلغوا كذلك مبلغ الأمية الجاهلي في الغباء، وكان منهم من نُسِمَ في عصرنا هذا بكتاب الحسابات أو مأمور التحصيل، وهو متى العشار صاحب الإنجيل المعروف باسمه، وقدرته على كتابة إنجيل – باللغة اليونانية كما هو الأرجح – قدرة لا تتأتى لغير المثقفين، ومنهم يوحنا الذي ينسب إليه الإنجيل الرابع، وهو ابن خالة المسيح أو من بني خئولته، وكان صاحب عمل ناجح في تجارة السمك يشاركه فيه أخوه يعقوب، كما يؤخذ من إنجيل مرقس حيث يقول: إنهما تركا أباهما في السفينة مع الأجراء، وذهبا وراء السيد المسيح.

ومنهم جيمس قريب المسيح، ويوحنا، «وابن الرعد» كما سماه المسيح لقوته في الإنذار وتشديد النكير، ومنهم بطرس وهو متكلم جريء صلب العزيمة، مدرب على حمل السلاح كما يؤخذ من بعض أخبار الإنجيل، وكلهم كانوا على استعداد للمناقشة والمساجلة ومخاطبة الناس في أمر الدعوة، وأكثرهم واجه الموت في عمله لنشر الدعوة، ولم يحفل بمقاومة ذوي البأس والسلطان.

وقد استمالت الدعوة إليها في عصر المسيح وبعد عصره طائفة من المثقفين العلماء، مثل نيقوديمس عضو المجمع الأعلى، ومثل الطبيب لوقا صاحب بولس الرسول، ومنهم بولس الرسول نفسه، وهو أستاذ في فقه الدين عالم بالتواريخ، وأكثر هؤلاء المثقفين مالوا إلى الدعوة عطفًا على التلاميذ المجاهدين الذين نكلت بهم السطوة الغاشمة، لأنهم خارجون على نظام

من العقيدة والعادة يحتقره أولئك المثقفون، ولا يجهلون فعل المحاسبة الروحية في تقويضه أو الإجهاز عليه.

ومن المعاصرين من يحلو له أن يحسب السيد المسيح داعياً إلى الفوضى السياسية متحللاً من النظام، لشدة إنحائه على الشريعة، والجامدين عليها، والمنافقين باسمها، وفاتهم أن الشريعة الفاسدة في أيدي الجامدين أو المنافقين هي الفوضى في صورة أخرى، ومن يدحضها وينحى عليها لن يكون من الفوضويين، ولا أعداء النظام.

أما البيّنة في الواقع على سخف هذا الحسبان فهو تنظيمه لتلاميذه، وترويضه لهم على الطاعة وإنكار الذات، وتقسيمه للأعمال في مجتمعه الصغير - مجتمع التلاميذ - بين أمين للصندوق، ومباشر لمطالب الجماعة، وراع يرعى القطيع في غيبة السيد، وهم فئة قليلة لا تجاوز العشرين مع حسبان التلاميذ، وغيرهم من الطائنين.

وأدخل من هذا في باب التنظيم أنه اختار أولاً اثني عشر تلميذاً، ثم اختار بعدهم سبعين وأوصاهم أن ينطلقوا بالدعوة اثنين اثنين في كل اتجاه، وأنهم حين عادوا من رحلتهم أخذهم ناحية في الجبل، ليستمع منهم، ويراجع أعمالهم، ويزيدهم من الوصية والإرشاد.

وقد جعل كل مناسبة للدعوة مناسبة لتعليم أولئك التلاميذ المختارين، وكان يُحذّرهم على الدوام من الفتنة الموبقة التي يتحطم عليها نظام كل جماعة، وهي فتنة التنافس على الرئاسة، فعلمهم أن الأول فيهم هو خادمهم الأول، وضرب لهم مثلاً فذاً في تاريخ الدعوات، ليقوا جماعتهم غواية الرئاسة كلما ذكروه، فجمعهم في محفل، ليغسل أقدامهم بيديه، ونفر بعضهم أول الأمر، ولكنهم عادوا فأذعنوا حين علموا العبرة التي عناها بهذه القدوة، وقال الذين نفروا أول الأمر من هذا التقليد إنهم يودون لو يأمرهم بأن يطيعوه في غسل الأيدي والرءوس.

وحصر جهده كله في تعويدهم «إنكار الذات» وهو فضيلة الفضائل في الأعمال العامة، فعلمهم أن يعملوا ولا ينتظروا جزاء على عملهم، ثم أذن لهم أن يقبلوا ضيافة البيوت التي يدخلونها لدعوة أهلها، ولكنه قال لهم: «لا تحملوا كيساً ولا مزوداً ولا أحذية ... وأي بيت دخلتموه فقولوا: سلام، وأي مدينة دخلتموها، ولم يقبلوكم فاخرجوا إلى سبلها، وانفضوا غبارها من أرجلكم».

وكرر لهم الوصية بالبساطة في العمل والكلام، فأمرهم «ألا يشغلوا بالهم كيف ومتى يتكلمون، لأنهم يلهمون في تلك الساعة ما يقولون، وليسوا هم المتكلمين، بل هوروح أبيهم يتكلم فيهم».

ولم يخف عنهم أنهم مُلاقون ويلاً من النَّاس، فليكونوا حُكماء كالحيات، وبسطاء كالحمائم، أما إذا جد الجد فلا يخافن من يهلك الجسد، وليخافن من يهلك الروح. وقد أثمرت رياضة الحب في تدريب هذا الجند الروحاني ما لا تثمره رياضة القسوة والصرامة في تدريب جنود القتال، فخرجوا يعملون وهم يعلمون أن الوناء في أداء الأمانة يضرهم أمام أنفسهم، ويضرهم أمام الله، وليس أقسى على النفوس من الشعور بهذا الصغار.

وما هو إلا حان موعدهم ليعملوا وينتشروا في الأرض، حتى خرجوا إلى كل وجهة، وأبعدوا الرحلة في كل مكان معمر، فمنهم من وصل إلى جزر الهند الشرقية كالرسول توما، ومنهم من وصل إلى سكيثية وآسيا الصغرى كالرسول أندراوس، ومنهم من شغل بنفسه في البلاد الأوربية، فأرسل صحابته إلى إفريقية الشمالية، وعمت الدعوة مصر وبلاد العرب والعراق، فضلاً عن الدعوة في فلسطين.

ولكنهم لم يحفلوا بخطاب أبناء اليهودية، كما حفلوا بخطاب الأمم في الجليل وآسيا الصغرى والإسكندرية، وأفادهم التمهيد الذي سبقهم به طوائف اليهود وأصحاب النحل السريّة في تنظيم الدعوة، فعملوا كما كان يعمل الآسون والغلاة الغيرون، يخرجون اثنين اثنين، وينشرون الخلايا في كل بقعة، ويحفظون الصلة بين تلك الخلايا بالمراسلة والزيارة، وهنا يصح أن يُقال إن الدعوة الجديدة استفادت من الدعوات التي سبقتها في العصر السابق لعصر الميلاد، ولا جرم يكون أكبر النجاح الذي أصابوه ملحوظاً في آسيا الصغرى والإسكندرية، حيث عُرف من قبل نظام الخلايا والسياح المتنقلين من الوعاظ.

كذلك يبدو أثر «الحالة العالمية» في انتشار الدعوة الجديدة من ظاهرة رائعة تكررت في كل أمة، فقد كان المدعوون إلى الدين الجديد من جماهير النَّاس سراعاً إلى القبول، حراساً على المعاونة والتأييد، ولم يصب الرسل خطر إلا من قبل «السلطة الغالبة»، حيث تصطدم عبادة القياصرة بعبادة الله.

وكان أشدهم حماسة لدينه يلجأ إلى المجاملة رجاء أن تكسبه هذه المجاملة بعض المؤمنين الذين يعرضون عن الدعوة إذا واجهتهم الصراحة بغير تقية، فكان بطرس في أنطاكية يجامل المحافظين، ويغاشر أبناء الأمم كلما أحس حوله يقوم من «آل يعقوب»، فوبخه الرسول بولس علانية، وحذّره من مخالفة الدعوة في سبيل مرضاة الناس.

على أن بولس نفسه كان يتألف القلوب ببعض المجاملة، وكان كما قال في سفر كورنثوس الأول «استعبدت نفسي للجميع لكي أربح الأكثرين، وصرت لليهودي كيهودي لأربح اليهود، وللناموسيين كالناموسيين، ولغيرهم كأني بغير ناموس ... صرت لكل كل شيء، لعلّي أستخلص من كل حال قوماً...».

ومن ثمّ ولا شك خالط المسيحيين الأول أناس ممن تحولوا إلى المسيحية من الوثنية، ونقلوا معهم بعض عاداتها وشعائرها، وشملهم الأعضاء حيناً، لعلهم بعد هجر الوثنية يستقيمون على مناهج الدين الجديد.

ومن بدع القرن العشرين سهولة الاتهام، كلما نظروا في تواريخ الأقدمين، فوجدوا في كلامهم أبناء لا يسيغونها، وصفات لا يشاهدونها، ولا يعقلونها، ومن ذلك اتهامهم الرسل بالكذب فيما كانوا يشتبونه من أعاجيب العيان، أو أعاجيب النقل والرواية، ولكننا نعتقد أن التّاريخ الصحيح يأبى هذا الاتهام؛ لأنّه أصعب تصديقاً من القول بأن أولئك الدعاة أبرياء من تعمد الكذب والاختلاق، فشئت ان عمل المؤمن الذي لا يبالي الموت تصديقاً لعقيدته، وعمل المحتال الذي يكذب ويعلم أنّه يكذب، وأنّه يدعو الناس إلى الأكاذيب، مثل هذا لا يقدم على الموت في سبيل عقيدة مدخولة، وهو أول من يعلم زيفها وخداعها، وهيئات أن يوجد بين الكذبة العامدين من يستبسل في نشر دينه كما استبسل الرسل المسيحيون، فإذا كان المؤرخ الصادق من يأخذ بأقرب القولين إلى التصديق، فأقرب القولين إلى التصديق هو أن الرسل لم يكذبوا فيما رووه، وفيما قالوا إنهم رأوه، أو سمعوا ممن رآه، وليس بالمخالف للمعهود في كل زمن أن يصدق الإنسان عياناً ما يصدقه في قرارة نفسه، وبخاصة حين يجمع الألوفا على تصديقه، ولا يوجد بين قائله وسامعيه من يحسبه من المستحيل.

وليذكر أدعياء التمهيص في عصرنا هذا أننا نطلب من الرجل في القرن الأول للميلاد أن يكذب إنساناً لغير سبب، وهو يطمئن إليه، ولا يتهمه بالتلفيق والاختلاق، ومن التكذيب

لغير سبب في ذلك العصر أني بادر السامعون إلى تكذيب الرواة كلما تحدثوا عن المعجزات، فذلك شبيه في عصرنا هذا بمن يكذب إنساناً لأنه سمعه يتحدث عن ظاهرة فلكية وصناعية لا غرابة فيها، ولا سيما إذا كان المتكلم غير معهود فيه أن يتعمد الكذب والاختلاق. إن أسخف السخف أن يقال إن ديناً من الأديان قام على الأعاجيب والخوارق، إن تصديق الخوارق والأعاجيب هو نفسه إيمان كأقوى الإيمان، وما خلت دعوة دينية قط من أحاديث هذه الخوارق والأعاجيب، ما يعقل منها وما لا يعقل، ولكن لم يحدث قط إقبال كذلك الإقبال الجارف الذي تلقى به الناس رسل المسيحية؛ لأنهم تلقوهم بنفوس مقفرة متعطشة، ونظروا أمامهم فرأوا قومًا مثلهم يؤمنون غير مكترئين لما يصيبهم، وغير متهمين في مقاصدهم، فأصغوا إليهم، وآمنوا كإيمانهم، ولولا ثقة المسيح عليه السلام بهذا الإقبال لما أوصى تلاميذه أن يذهبوا حيث يستمع لهم، وينفضوا عن أقدامهم غبار كل بلد يتلقاها بالصدود والنفور.

obeikan.com